نحو إعادة تفعيل دور الأمة في تحقيق الانبعاث الحضاري

Towards a reactivation of the role of the Ummah in the realization of the civilizational renaissance

أ/ دليلة بن كوسة

جامعة امحمد بوقرة –بومرداس، (الجزائر)

dl.ben@hotmail.com

تاريخ الارسال: 2022/09/30 تاريخ القبول: 2022/12/26 تاريخ النشر: 2022/12/29

ملخص: شكلت الأمة الجوهر الأصيل الذي انبثقت منه الحضارة الإسلامية، وقلبها النابض عبر مراحلها التطورية إلى أن استكملت دورتها، لتليها عقود من مرحلة الانحطاط الحضاري، زامنه تطور سريع للعالم، شمل كافة المستويات والمجالات، ليعبر عن حركية واقعية دائمة ضمن أجندات تتضمن معادلات وسياسات متغيرة، وفق متطلبات الواقع وتداعيات النظام العالمي ومصالحه، وضرورات خلق مبررات وجود واستمرار هيمنة الحضارة الغربية، فكان لزاما العودة إلى الأمة ودراسة سبل تفعيل دورها كي تحقق الانبعاث الحضاري من جديد، لحضارة رغم أفولها لا تزال أمتها قائمة وفق منظومة قيمية تشهد على وجودها واقعيا، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تجديد مفهوم الأمة من منظور حضاري، ورصد وضعها في النظام العالمي، وإمكانيات وسبل إعادة تفعيل دورها.

الكلمات المفتاحية: الأمة؛ المنظور الحضاري؛ الانبعاث الحضاري؛ المشروع الحضاري؛ الدور الحضاري؛ الفاعلية الحضارية.

تصنيف جال: Z00، Z1 ، Z12

Abstract: *The Ummah formed the original essence from which Islamic civilization emerged through its stages of evolution until it completed its cycle, followed by decades of the stage of decline, in light of the rapid development of the world, which included all levels and domains, which is an indication of a permanent realistic dynamism within agendas which include Changing policies, according to the demands of the reality and implications of the global system and its interests, and the necessities of creating justifications for the existence and continued hegemony of Western civilization, it was necessary to return to the Ummah and study ways to activate its role in order to achieve the civilizational renewal of a civilization, despite its decline, its ummah still exists according to a value system that attests to its realistic existence, and this can only be achieved by renewing the concept of Ummah from a civilized perspective, and monitoring its status in the international system, as well as the capabilities and means to reactivate its role.*

key words: *The Ummah; the civilizational perspective; the civilizational revival; the civilizational project; the civilizational effectiveness.*

JEL classification: *Z00; Z1; Z12.*

مقدّمة:

تنشأ الحضارة عن مجموعة بشرية تعمل على تطوير نمط حياتها وأساليب نموها بما تنفرد به عن الجماعات الأخرى متواصلة معها ومتجاوزة لها عبر ما تبدعه من أنماط التفكير وأساليب العيش، وبالنظر إلى الواقع التاريخي مثلت الأمة الإسلامية منذ تشكلها الأول بنزول الوحي على سيدنا محمدﷺ، مجموعة بشرية أصيلة موحدة برابطها الروحي المتمثل في الإسلام، انبثقت عنها أهم حضارة إنسانية في صرح التاريخ الإنساني، وعلى الرغم من المرور بالأطوار التاريخية ودخول الحضارة الإسلامية مرحلة الانحطاط، لا تزال أمتها باقية ومستمرة لتشكل مجموعة بشرية ذات روابط تاريخية، روحية، ثقافية وحضارية.

تشكلت الأمة عبر التاريخ على رقعة جغرافية امتدت من طنجة إلى جاكارتا، ومن غانا إلى فرغانة، توحدها الرابطة الإيمانية المتمثلة في شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، لتشغل فضاء حضاريا زاخرا بتنوع ثقافي متمازج، ماثل في تعدد الأجناس وتباين المذاهب، العادات، الأعراف والتقاليد، وقد اتسع الفضاء الحضاري للأمة على مر الزمن بانتشار الإسلام، فحتى هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 على الولايات المتحدة الأمريكية، وانتهاج الإستراتيجيات العملية لشيطنة الإسلام والمسلمين، واستخدام آليات الإسلاموفوبيا لم تزد الغرب إلا ارتفاعا في عدد المسلمين وفي عدد المتطرفين المناهضين لهم، وخاصة بعدما عرفته بعض الدول العربية من حالات اللااستقرار واللاأمن إثر موجات ما سمي بالربيع العربي، واتخاذ العديد من اللاجئين الغرب وجهة لهم، فقد شهد العالم انتشارا للإسلام في عقر الديار الغربية، وبه ازداد امتداد وجود الأمة واتساع مجال فضائها الحضاري، فصار وجودا كونيا عابرا للدول والقارات.

إن مستوى الامتداد الكوني للأمة وفاعلية بعض أفرادها عالميا مقارنة بتموقعها على ذيل السلم الحضاري، واستمرارية ذلك عبر عقود من الانحطاط، وبالنظر إلى فعاليتها الحضارية السابقة عبر التاريخ البشري، وتجاوزا لما يشهده العالم من انحصار في المادية المفرطة التي أفقدت الإنسان حتى معناه، ووصول الحضارة الغربية لمرحلة الترف، يستوجب النظر في وضعها الذي يتجاوز مستوى الدول وهو ما جعلها من الناحية التنظيرية مستوى من مستويات التحليل في العلاقات الدولية، ولزوم الوعي بإمكانياتها، وبحث آليات تعميم فاعليتها على عموم أفرادها، والسعي نحو خلق أجيال متعاقبة تفقه الدور الحضاري لها في سياق الأمة الوسط الواحدة الشاهدة على باقي الأمم بما يجسد الحضور والشهود الحضاريين، وبما يقدم للإنسانية التي خرجت عن فطرتها في سياق الهيمنة المادية للحضارة الغربية البديل الحضاري المؤنسن.

الإشكالية: تعتبر الأمة الركيزة الأساسية والفاعل المحوري للإحياء المجتمعي نحو قيام الحضارة واستمرارها فهي الصانع للمشروع الحضاري والمجسد له، وهي غايته وأداته في الوقت ذاته، فرغم تدهور الحضارة الإسلامية تاريخيا لا تزال الأمة موجودة واقعيا وقيميا وكونيا، وبناء على وجودها كيف يمكن إعادة تفعيل دورها حتى يتحقق الانبعاث الحضاري لها من جديد؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية التساؤلات الفرعية التالية:

1- ما المقصود بالأمة من منظور حضاري؟

2- فيم يكمن الوضع الحالي للأمة في النظام العالمي الراهن على المستويين الداخلي والخارجي؟

3- هل للأمة إمكانيات تخولها تحقيق انبعاثها الحضاري وكيف السبيل إلى ذلك؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات الفرعية تم صياغة الفرضيات التالية:

1- إن مصطلح الأمة The Ummah مصطلح قرآني له دلالة علمية، تاريخية، ثقافية ومجتمعية، فكلما تحدد المفهوم من منظور حضاري كلما اتضحت غايته وتحددت وظيفته الحضارية على أرض الواقع.

2- تعرف الأمة في الوقت الحالي إرهاصات عديدة فإذا تم تحديد أنماط الإشكالات والتحديات داخليا وخارجيا تم تحديد وضعها عالميا والتوصل إلى حل وتجاوز التحديات بما يخدم فاعليتها حضاريا.

3- كلما كان الوعي بإمكانيات الأمة كونيا كلما اتضحت آليات وسبل تحقيق انبعاثها الحضاري.

إن أي دراسة علمية تستوجب بالضرورة العمل بالمناهج العلمية، وبما أن الأمة هي ظاهرة أصيلة متواصلة ومتجددة عبر الزمن تشكل مستوى من مستويات التحليل في العلاقات الدولية، سيتم استخدام المنهج الاستدلالي الذي يستعمل للانتقال من ظواهر مسلم بصحتها، إلى ظواهر أخرى ناتجة عنها بالضرورة، وتكون جديدة بالنسبة للقضايا الأصلية، وذلك لمقاربة حقيقة الأمة كمفهوم قرآني وردت مميزاتها ووظائفها الحضارية في القرآن الكريم، وكظاهرة تاريخية تجسدت عبر التاريخ الإسلامي منذ نزول الوحي على الرسول محمد ﷺ، وكفاعل دولي معطل حضاريا كونها تعاني من معضلات جمة تقف في وجه فاعليتها الحضارية، بغية رصد الإمكانيات الحالية والآليات الفاعلة لتحقيق انبعاثها الحضاري.

ومما سبق فإن الهدف من هذه الدراسة يصب في عملية تجديد تحديد مفهوم الأمة من منظور حضاري بما يرصد وضعها في النظام العالمي، بكشف إشكالاتها وتحدياتها على المستويين الداخلي والخارجي، وبما يبرز إمكاناتها الكامنة والمتجددة وآليات توظيفها عبر نماذج لمشاريع فكرية معطلة، قادرة على تحقيق عودتها الحضارية، وبناء على هذه الأهداف سيتم التطرق إلى النقاط التالية:

1- مفهوم الأمة من منظور حضاري

2- وضع الأمة في النظام العالمي: أنماط التحديات الداخلية والخارجية

3- إمكانيات فاعلية الأمة الحضارية وآليات تحقيق الانبعاث الحضاري

1. مفهوم الأمة من منظور حضاري:

إن الوصول إلى حقيقة جوهر أي ظاهرة ومكنونها يستدعي الانطلاق من محدداتها اللغوية والاصطلاحية، لذلك يشمل هذا العنصر تحديد مفهومي الأمة Nation - Ummah لغة واصطلاحا في كل من الفكرين الغربي والإسلامي، نظرا لخصوصية هذا المصطلح كما سيتم تحديد مفهومها من المنظور الحضاري انطلاقا من القرآن الكريم بما يخدم طبيعة الدراسة وغايتها وأهدافها.

1-1- الأمة في الفكر الغربي:

يعود أصلها إلى الكلمة اليونانية "natio" التي تعني الميلاد، لذلك ينبثق تعريفها في الفكر الغربي للتعبير عن مجموعة من الأفراد المتحدين والمتماسكين الذين توحدهم الأصول المشتركة سواء كانت إثنية أو ثقافية أو لغوية أو مكانية أو حتى دينية، أو التاريخ المشترك، وتجمعهم الروابط العاطفية، ويطمحون للعيش معا، وهو يصب في معنى مصطلح "القوم" في اللغة العربية والذي يعني جماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها (معجم المعاني الجامع)، غير أن الأمة في الفكر والممارسة التاريخية في العالم الإسلامي أوسع وأشمل فقد تحتوي على عدة أقوام مما يجعل المصطلح الغربي Nation لا يعكس مصطلح Ummahالعربي، كما أنه لا يوجد في الفكر السياسي الغربي تحديدا جامعا وموحدا لمصطلح "Nation" إنما يبرز تاريخيا مفهومين متعارضين، الأول المفهوم الفرنسي وهو مفهوم منفتح واستباقي يحددها بمجتمع تاريخي أنشأته إرادة العيش معا، وبالتالي فهي تعتمد على دعم كل من يطمح للاشتراك فيها، وحسب الفكر الفرنسي تشكل تنظيما سياسيا حيث لا تنفصل عن النظام السياسي بل تعد مجتمعا من المواطنين، ومصدرا للسيادة السياسية وبوتقة للإرادة العامة، وحسب النظرية السياسية يعد الممثلين البرلمانيين تجسيدا للأمة، وفي ذات الوقت، عد الفكر القانوني الدولة تعبيرا مؤسسيا للأمة وهو ما يجسد فكرة الدولة القومية (Nay, 2008, p340)، أما الثاني فهو المفهوم التاريخي للأمة في الفكر الألماني والذي يعد أكثر انغلاقا، حيث ربط الأمة بمعياري الثقافة واللغة، أي بوحدة عضوية تتطور خارج أي إرادة بشرية، وبهذا المعنى فهي ذات طبيعة جوهرية، تشكل أساسا ثقافيا يسبق المجتمع السياسي وبالتالي قبل تشكل الدولة، لتعبر عن مقاربة عضوية أكثر من كونها وطنية، فلا يُنظر إلى الأمة بأي حال من الأحوال على أنها ثمرة طوعية غير مقيدة، بل على العكس من ذلك نتاج ثقافة معينة، أو الاشتراك في نفس اللغة، أو امتلاك جذور مماثلة أو نفس العرق، لذلك تقوم الأمة على امتلاك مشترك لعدد معين من السمات العضوية كاللغة، والعرق، والدم، والثقافة، والعادات، والدين.(Alcaude, 2010, p 282)

ومما سبق تعني الأمة الجماعة من الناس أكثرهم من أهل واحد وتجمعهم صفات موروثة ومصالح وأماني واحدة، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أم اختيارا (محمد، 2001، الصفحة 212)، فيقال أمة أمريكية، أمة فرنسية، أمة ألمانية، ويقصد بها تكوينات تقوم على وحدة الجنس والمصالح والأماني، كما يقال الأمة الإسلامية، الأمة اليهودية ويقصد بها تكوينات تقوم على قدر كبير على وحدة الدين والعقيدة وإن كان لا يتنافى مع وحدة الجنس والمصالح والأماني. (النقيب، 2007، الصفحة 252)

1-2- الأمة في الفكر الإسلامي:

لغة تشمل مفردة "الأمة" في مادة "أمم" التي هي جذر ها معاني عديدة أهمها: أم الشيء بمعنى أصله، والأم الوالدة، ورئيس القوم، والجماعة، والعلم الذي يتبعه الجيش، والطريقة، والدين، والجنس من الحيوان، والقامة، والنعمة والقصد، ويقصد بـ"الإمام": الخشبة التي يسوى عليها البناء، والطريق الذي يعتد به، والكتاب المبين، ويعني بـ"الأَم" القصد والتعمد والتوخي لشيء دون سواه، والدليل الهادي لأنه قاصد، و"الإمة" تعني الحالة و"الإمة والأمة" تعني الشرعة والدين والطريقة والسنة المتبعة والنعمة

والملك وأهل الدين، والحال والشأن، ونضارة العيش، والعيش الرضي (بن منظور، 1993، الصفحات 112-120)، ومنه فإن الأُمة لغة ناظم لطريقة وسنة ودين ودليل وهاد، من توخاه بمنظومة قصده تحددت به قامته وصبغته، وجنى ثمرته النعمة والشأن والعيش الرضي والملك، وهذا الناظم مرهون بمضامين مدخلاته، وهو ليس من الأمور التكوينية، بل هو من الأمور التكليفية، وبالتالي فإنه عرضة للتمثل في الواقع بدرجة تقترب أو تبتعد من المثال، وبالتالي فإن الأمة ناظم فكل شيء انضمت إليه أشياء فهو أم، لذا سميت مكة أم القرى لتوسطها للأرض، وسمي رئيس القوم أما لهم لأنه جامع أمرهم (عمر، 2002، الصفحة 16)، كما استُعمِل هذا المعنى فيما يؤم ويقصد كالجماعة التي تضم فئات متنوعة، في فترة زمنية معينة ومقصدها واحد (حميدي، 2020، الصفحة 23)، كما تعني القرن من الناس، فيقال: قد مضت أمم أي قرون، وأمة كل نبي من أرسل إليهم من كافر ومؤمن، وقيل الأمة الجيل والجنس من كل حي، ومن الواضح أن العنصر البشري الوحيد في هذا المفهوم هو الجماعة وهي محكومة بالأصل الذي تعود إليه وبالمرجع، والحكم في أمرها كله هو الدين، وهو يعود بها إلى وحدة الأصل البشري، ووحدة المرجع، ووحدة الدين، فالدلالة اللغوية لمفهوم الأمة تربطه بأصل ومرجع ودين لجماعة ذات مقصد واحد، مما يولد هيئة أو حالا لها لأمد معين (عمر، 2002، الصفحة 17).

أما إصطلاحا الأمة The Ummah في الفكر الإسلامي وكما وردت في القرآن الكريم فيقصد بها تحديدا الأمة الإسلامية التي تدين بديانة الإسلام، والتي تربطها الرابطة الروحية الإيمانية الأخوية مهما اختلفت الأعراق والأجناس والألوان، والطبقات الاجتماعية، وسيتم التفصيل في نشأتها ومدلولها في العنصر الموالي.

1- 3- الأمة من المنظور الحضاري:

برز المنظور الحضاري في الفكر الإسلامي والذي يقوم على الاستناد إلى المصادر والمرجعية الإسلامية في عمليات التنظير السياسي، كضرورة ملحة لحل مشاكل الأمة والإنسانية، فقد اتفق منظروا العلاقات الدولية خاصة والعلوم السياسية عامة، على أن العالم يمر بأزمة تستدعي الحاجة إلى المراجعة والبحث عن منظور بديل، نظرا لعدم وجود نظرية عامة في العلاقات الدولية، ولتعدد المنظورات بشكل يعكس الفوضى النظرية، ولحالة السيولة على صعيد المنهج أو المضمون التي تعكسها المابعديات، وكذا التشابك والتداخل الموجود بين العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى، وكذلك بعد انبعاث الاهتمام بالأبعاد الدينية والثقافية والحضارية في الدراسات السياسية خاصة العلاقات الدولية، وبأنماط جديدة من الفواعل والعمليات (مصطفى، الصفحات 3-4)، والمتغيرات الدولية وما ينجر عنها من أحداث أوجبت الاهتمام بالعوامل الدينية والثقافية والحضارية، بعد أن كان منظور وستفاليا الواقعي يدرس السياسات الدولية من منظور علماني، فاقترن صعود الدين، الثقافة والقيم بصعود الاهتمام بمستويات جديدة للتحليل تتجاوز الدولة القومية والنظام الدولي، باعتبار أن السياسة لا تتحدد بالمؤسسات فقط ولكن بمناط الفعل والتأثير من ناحية القيم والأخلاق (مصطفى، الصفحة 7)، وعلى الإقرار أن العلاقات الدولية هي عبارة عن هيكل اجتماعي (مصطفى، الصفحة 8)، مثلت فيه الأمة كيانا جماعيا تجسدت

خلاله على المستوى التاريخي باعتبارها نظاما دوليا تعد فيه أم الكيانات الجماعية التي عرفتها المنطقة الحضارية (مصطفى، العلاقات الدولية في الفكر السياسي الإسلامي: الإشكاليات المنهاجية وخريطة النماذج الفكرية ومنظومة المفاهيم، 2013، الصفحة 202).

فبالعودة إلى نشأة الأمة ارتبط أصل المفهوم ارتباطا مباشرا بالدين، فقد ورد في القرآن الكريم بالمفرد "أُمَّة" وبالجمع "أُمَم" في أربع وستين موقعا (الباقي، 2000، الصفحات 80-81)، وبمعاني ودلالات مختلفة، فقد شملت معنى الدين أو الطريقة أو المنهج أو الشريعة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سورة النحل الآية 93، وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (22) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ(23)﴾ سورة الزخرف الآيتان 22-23، كما حملت معنى الفرد الإمام كما وصف الله سيدنا إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة النحل الآية 120، وكذلك جاءت بمعنى الفترة من الزمن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ سورة يوسف الآية: 45، وفي سورة هود الآية 8 في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وجاءت بمعنى عصبة أو جماعة من الناس في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ سورة القصص الآية 23، وفي سورة الأعراف الآية 164 في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، كما تضمنت معنى القوم، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ سورة النحل الآية 92، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ سورة الأعراف الآية 168، وكذلك وردت وبمعنى الخلق عموما في قوله تعالى:﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ سورة الأنعام الآية 38.

ومما يستخلص من تلك المعاني الواردة في الآيات القرآنية أن الأمة قد تكون في شكل فرد أو جماعة، أصلها واحدة وتعددت وتنوعت وامتدت واختلفت، وقد جعل الله تعالى لكل أمة رسول، ونذير يوحى إليه برسالة الإسلام التي تبين لكل أمة الطريقة المنهجة التي تعبر فيها ممارساتيا عن وجودها، ولها أجل زمني محدد، ولها كذلك شهيد منها وعليها، وقضت سنة الخلق أن ضمن كل أمة فئة تصدق الرسل و فئة تكذبهم، ووصفها الله تعالى أنها إما أمة مسلمة، أو أمة قد خلت سبقت وانتهت رسالتها وزالت، أو أمة وسطا وتكون شهيدة على غيرها من الأمم، وهو الوصف الذي خصه تعالى بالأمة الإسلامية التي آمنت برسالة الرسول محمد ﷺ، فخصها بتكليف الأمة الوسط الحاضرة الشاهدة على الناس، وأثنى عليها أنها خير أمة

أخرجت للناس تؤمن بالله، فمهمتها تجسيد الرسالة بالدعوة إلى الخير، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشهادة على الناس، كما جاء ذكر الأمّة في الأحاديث النبوية، ومنها قوله ﷺ: "ولن تزال هذه الأمّة قائمة على أمر الله لا يضرُّهم من خالفهم حتى يأتِيَ أمر الله" (البخاري ،2002، الصفحة 30)

ومن جوهر الآيات القرآنية يتشكل معنى الأمة التي تضم جميع من صدق برسالة النبي محمد ﷺ، وآمن به منذ البعثة إلى يوم القيامة، والصفة المشتركة بينهم هي الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وملائكته، وبالقدر خيره وشره، ولهم قبلة واحدة هي الكعبة المشرفة (برقاوي، 2001، الصفحة 199)، وهي الروابط العقدية التي توحد المسلمين فيما بينهم، وفق روابط إنسانية تعد أكثر شمولا وبدوائر من الوحدة أكثر اتساعا، حيث يشمل وحدة دائرة الأمة حتى الإنسانية والتي تتجلى في وحدة الأصل الإنساني الذي يشترك فيه الناس جميعا (النقيب، 2007، الصفحة 51) وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة الآية 213 :﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ .

من ثم كان تجسيد مفهوم الأمة ممارساتيا وسلوكيا في التاريخ الإسلامي ذو اتصال مباشر بالدين وعملا بالمدلول القرآني، حيث كانت الكيان القائم بالتعاليم الموحية، فأخذت معنى دينيا عميقا، لارتباطها بأصول الدين في القرآن الكريم والسنة النبوية، وما دار حولهما من اجتهادات العلماء في تنزيل أحكامهما في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فانصبغ التراث الذي خلفه أولئك العلماء بصبغة دينية ظاهرة، وعلى الرغم من تعدد أعراق ولغات الأوطان أو النظم السياسية، فإن ثمة نوعا من الترابط بين المؤمنين بالإسلام كونهم إخوة، وهو الذي يجعلهم أمة واحدة. (الملكاوي، 2021)

فبالعودة إلى تكوينها انبثقت الأمة عن الفكرة الدينية التي نص عليها القرآن الكريم وتكرست واقعيا بداية من تاريخ بعثة سيدنا محمدﷺ وانتشارها بين الأقربون، وامتداد صداها بين العرب خاصة بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية كي تهيَّء السبل للهجرة إلى يثرب والتي أسماها بعد ذلك بالمدينة المنورة، ليتكرس التعبير عنها ممارساتيا من خلال العبادات التي لها عمق اجتماعي وروحي جماعي يوطد الرابطة الإيمانية بين عموم المؤمنين وفق نمط حضاري رفيع، تجسيدا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الآية 10 من سورة الحجرات، وبين غيرهم من الأديان وفق مبدأ وحدة أصل خلق الإنسان من سيدنا آدم في قوله تعالى في سورة النساء في الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ، واحِدَةٍ، وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ونِسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، فانبنت شبكة العلاقات الاجتماعية وتوطدت وتوسعت بانجلاء وثيقة الصحيفة التي حددت العلاقات والواجبات والحقوق الرابطة بين المؤمنين المتمثلة في نظام الأخوة الإيمانية حيث آخى الرسولﷺ بين المهاجرين والأنصار بعدما آخى بين المؤمنين الأوائل في مكة بالنصرة والمساواة، مبينا مرجعية ما اختلف فيه برده إلى الله ورسوله، كما حدد العلاقة بين المؤمنين واليهود، فتوسعت الأمة التي تشكلت نواتها في مكة، واشتد بناها مباشرة بعد تشييد مسجد قباء أول مسجد في الإسلام الذي أسس على التقوى، فمثل معلما إشعاعيا ومأسسة للقيم الدينية التربوية الحضارية، فكانت طبيعتها جسدا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، مرجعيتها الكتاب والسنة، منهجها الوسطية، رابطتها الأخوة الإيمانية

والأخوة الإنسانية، فقد تطورت تاريخيا وانفتحت على غيرها من أهل الكتاب فاحتوت الأقليات اليهودية والنصرانية، وانتشر في نطاق جغرافي ممتد فكانت الأمة حيث وُجد المسلمون، واتخذت من الفرد أو الجماعة شكلا لها، قائمة على وظيفة أساسية هي تجسيد الرسالة السماوية بالاستخلاف والعمران ونشر الدعوة رحمة للعالمين.

لقد كان الإسلام منذ ظهوره دين دعوة، سواء من الناحية الروحية الفكرية، أو من الناحية المجتمعية الواقعية، فكانت الدعوة الدعامة الأساسية في التوسع والامتداد، ذات خاصية أساسية قوامها العالمية، فحياة الرسول محمد ﷺ تمثل هذه التعاليم ذاتها، فكان نفسهﷺ يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين والذين وفقوا في نشر الرسالة مجسدين للرؤية الكونية، فأضحت الدعوة ملكا للجميع دون استثناء، وقد كانت الأعمال الوديعة الهادئة، التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل بقاع الأرض، جوهر الدعوة باعتبارها الأصل في العلاقات والتعامل، ومنه اعتبارها وظيفة حضارية اتصالية معنوية، حجة مساندة في إطار تفحص حركة التاريخ في ظل عمليات دعوية مستمرة جعلت انتشار الإسلام يأخذ أشكالا متعددة (أرنولد، 1970، الصفحة 15)، شكل فيها الفتح واحد من الأشكال الدعوية، فجاء الفتح الدعوى في إطار خيارات متعددة، مما ساهم في انتشار الإسلام بالتجارة ونماذج القدوة الدعوية، وهي نماذج ملهمة ومهمة في تتبع الحركة الدعوية في المسيرة التاريخية لنشر الإسلام. (عبد الفتاح، 2020، الصفحة 19)

إن إعادة التمعن في التجربة التاريخية للأمة تبين أنها حققت نموذجا فريدا داخليا وخارجيا، خلقت بموجبه تراثا في العلاقات الدولية امتاز بالتعارف والتدافع والتداول والصراع، وبأعلى مستويات الحضور العالمي وفق تعددية منقطعة النظير، فقد تجلت الأمة بوظيفتها الحضارية في تبليغ الرسالة سواء في دولة الخلافة الواحدة، أوفي ظل تعدد الخلافات، فعرفت اتساعا وامتدادا وتواصلا حضاريا على رقعة واسعة من المعمورة في شكل أفراد، أو جماعات، أو نظم، حققت فيها مستويات عالمية راقية وعالية من الهدوء والاستقرار، ويرجع ذلك لتنوع تكوين الأمة وامتدادها وانتشار الدعوة، ولاتساع الخلافة الإسلامية التي كانت من خصائصها المميزة أن عملية المد والتوسع قد قامت على أساس الإشعاع وتصدير الدعوة (الفضل، 2013، الصفحة 167)، خاصة عن طريق "الفتوحات" باختلاف أنواعها سواء الفتح غزوا، أو الفتح جباية، والفتح خروجا على القواعد الكلية في صد العدوان أو الفتنة في الدين، فقد كانت فتوحات حماية الأمة ورد العدوان، وفتوحات الاستنصار ورفع الظلم والفتنة عن الدين والصد عن سبيل الله، معبرة عن استمرار معنى الأمة في امتدادها ونشر دعوتها، وتواصل وجودها المعنوي ومحركا لاستنادات أخرى غير وجودها المادي، تكاملا مع اعتبار الدعوة لا القتال والغزو أصل العلاقات، فكان للدعوة بالتي هي أحسن والتجارة والتصوف، وغيرها من المعاملات التي كرست القيم الإسلامية دورا فاعلا في انتشار الإسلام (عبد الفتاح، 2020، الصفحة 14).

لقد أسهم ما سبق ذكره في خلق تعدد المراكز السياسية في الدولة الإسلامية، المدينة في البداية، تليها دمشق وبغداد والأندلس وقاهرة المعز والدول البربرية العديدة في شمال إفريقيا، وعادة ما تتخذ

الدولة بداية قاعدة معينة ثم تستقطب الأجزاء المحيطة بها، فكانت القواعد المدن والأمصار الممتدة في سلسلة من المدن عبر نظام متصل مرتبط على المستوى الإقليمي تشارك فيه، ويتباين فيه ثقله ما بين تلك المدن ودورها على أساس من اللامركزية امتاز بها جوهر وخصوصية كيان الخلافة الإسلامية في حد ذاته (الفضل، 2013، الصفحة 167)، وضمن حركة حيوية تاريخية لتطور الكيان الحضاري الإسلامي على مستوى البيئة الإسلامية في امتدادها التاريخي، في عملية صعود وهبوط دائرية ومستمرة جسدها قيام دول وانهيارها، ونقل لمراكز الحضارة من بؤرة إلى أخرى وفق عملية تداول مستمرة في حيز التواصل (الفضل، 2013، الصفحة 169)، شكلت فيها الأمة بوتقة الصهر وبيئة الحركة ومعمل التنشئة وإطار التشييد. (الفضل، 2013، الصفحة 173)

وبالنظر إلى ما سبق من السياقات اللغوية والقرآنية، وكذا أهم ملامح التجربة التاريخية تتجلى الأمة كمفهوم عقدي اجتماعي سياسي ذو دلالات تاريخية ثقافية وحضارية ممتدة ابتداء من دولة المدينة مرورا بدولة الخلافة الراشدة ثم الخلافات الأموية والعباسية والعثمانية المتتالية، وبدرجات مختلفة من المركزية واللامركزية، ثم ما بعد الخلافة في عصر الدولة القطرية، فتجسدت ككيان اجتماعي ثقافي حضاري يربط بين أعضائه روابط عقدية وليس مجرد دولة أو كيانات قانونية فقط، وبالتالي إطار القيم المشتركة هو الرابط الأساسي بين مكونات هذا المجتمع وليس مجرد مؤسسات.

وعليه فإن "الأمة- The Ummah" مفهوم مجرد له دلالاته التحليلية والتفسيرية حول الأمة الإسلامية ذات الكيان الجماعي المرتكز على عقيدة إيمانية شاملة، تغطي منظومتها المستندة على الكتاب والسنة كافة أوجه الحياة الدنيا والآخرة، تقوم على ثلاث أسس رئيسية: كون أغلب أفرادها مسلمين، مرجعيتها الإسلام، وأنها واحدة لا تتعدد، وبهذا التحديد تعتبر الأمة كائن حي وكيان اجتماعي سياسي وديني. (الغزالي، 2007، الصفحة 252)

وعلى ضوء ما ذكر يجدر القول أن مفهوم الأمة تاريخيا انبثق ليعبر عن جماعة ارتبطت روحيا برابطة الإسلام والذي انبنت جراؤه المدينة المنورة فكانت نواة التأسيس للمدنية فأنجبت الحضارة الإسلامية فيما بعد، ووفق التصور والتجربة يتسع المفهوم لكل المسلمين في الدول الإسلامية وخارجها، فهي كيان حيوي جماعي ثقافي وحضاري، روحيا تربطه رابطة عقدية إيمانية تعبر عن مجموع القيم المشتركة لسائر المسلمين المستمدة من الكتاب والسنة، على أساس وحدة الأصل، الأخوة والمساواة، تترجم تلك القيم في شتى مجالات الحياة وتحكم العبادات، التعاملات والعلاقات فيما بين المسلمين ومع غيرهم، وفق معيار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منهجها الوسطية ومهمتها الشهادة بالحق والدعوة بالتي هي أحسن، على أساس التعارف، التدافع والتداول والصراع، ويتبدى ذلك سواء في شكل أفراد أو جماعات أو دول، كيان متنوع ومتعدد ومتسع ومتشعب، ممتد مكانيا عبر سائر أنحاء المعمورة، وزمانيا واصلا بين الحياة الدنيا والآخرة، غير أن العودة إلى الواقع تبرز العديد من التحديات التي تنبئ عن وضعها الحالي.

2- وضع الأمة في النظام العالمي: أنماط التحديات الداخلية والخارجية

بعد عقود من الانحدار الحضاري الذي أعقب استكمال دورة الحضارة الإسلامية لا تزال الضرورة العلمية والمجتمعية تستوجب رصد موقع الأمة باعتبارها كيانا حيويا، تاريخيا واجتماعيا في نطاقها الداخلي وفي امتدادها الخارجي في فترة اتسم الداخل بالتشرذم والانحاط والتغريب، وامتاز الخارج بالتحالف والحداثة والسيطرة، في ظل نظام عالمي يعرف صراعات عدة وتسابق شرس نحو الارتقاء في سدة الحكم العالمي، بين إحكام استمرار هيمنة الحضارة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والتي تشهد بدايات انحدارها، وبين بزوغ حضارة جديدة مغايرة تفرض منطقها على العالم، بين استمرارية نظام القطب الواحد وبين التحول إلى نظام تعددية الأقطاب، وهو أمر يستدعي اكتشاف أنماط تحديات الأمة التي تتمحور وتتداخل، تتشابك وتتفاعل فيما بينها لذلك سيتم شملها في هذه الدراسة في منبعيها الداخلي والخارجي.

2-1- التحديات الداخلية للأمة:

إن ما تشهده الأمة من تحديات داخلية يمكن إجماله في تحديين رئيسيين يلقيان بظلالهما على كافة التحديات الأخرى، فإشكالات التخلف والتجزئة تحيل الأمة إلى حاضرة جسديا في فضائها الحضاري غائبة عن سلم الرقي الحضاري، فواقعيا وبالنظر إلى وضع الأمة على المستوى المحلي والبيني، تفقد الأمة فعالية أفكارها التي تحكم شبكة العلاقات الاجتماعية فيتعذر معها أداء نشاطها المشترك (بن نبي، 1986، الصفحة 38)، ولذلك اضطربت وتمزقت شبكتها لتتشكل في مجرد تجمعات (بن نبي، 1986، الصفحة 29)، باعتبار أن هذه الشبكة هي التي تُؤَمن بقاء الأمة وتحفظ لها شخصيتها وفاعليتها، فتنظم طاقتها الحيوية لتتيح لها تأدية نشاطها المشترك في التاريخ، فيكفي نشر الفوضى والاضطراب كي تتحطم الطاقة الحيوية وتُهدم الشبكة (بن نبي، 1986، الصفحات 82-83)، والفوضى والاضطراب هي مظاهر للتخلف ومؤشر عن الانحطاط الحضاري ذات أساليب تتغذى بدورها من التجزئة والنزاعات والصراعات، كما تعمق التحديات الخارجية فكرا وواقعا وهو حال الأمة اليوم.

إن التخلف يعبر عن حالة تراجع مستمرة لفترة طويلة من الزمن ليمثل وضع تأخر مجتمع على السلم التطوري لعموم المجتمعات المعاصرة له، وتؤكده جملة من المؤشرات البارزة في معظم جوانب الحياة والتي تصدقها مظاهره الماثلة في الاضطراب والفوضى، غياب الحياة الكريمة، وارتفاع معدلات الموت، الفقر، الجهل، الأمراض، الفساد، الاستعباد، وإهمال و/أو إهدار و/أو تعطيل القدرات والإمكانات سواء المادية أو المعنوية أو البشرية، ويرصد التخلف عبر أوجه أنماط الحياة الماثلة اجتماعيا في البؤس الاجتماعي الناجم عن الاستغلال الاقتصادي، المدعم سياسيا بالاستبداد والطغيان في مستويات داخلية متشابكة أو متحالفة مع المستويات الخارجية، ومن المنظور الحضاري يعكس التخلف بكل أشكاله وتعابيره ومعاييره ومقاييسه جوهر مشكلة الحضارة في تركيبتها التفاعلية بين عناصر الإنسان والتراب والزمن (بن نبي، 2000، الصفحة 67)، فتحقيق التقدم مرتبط بفهم عوامل بناء وهدم الحضارة انطلاقا من فهم المعنى الواقعي للحقبة التاريخية المعاشة حتى يحدد التعديل المراد إحداثه (بن نبي، شروط النهضة، 1986، الصفحة 41)، فالتخلف يجسد حالة الانحطاط والركود الحضاريين، خلل الانحدار في

المستوى الحضاري يرافقه شلل في كافة المجالات الحيوية، والذي تخلص إليه الحضارة بعد استكمالها لدورتها ووصولها مرحلة الترف والغريزة كما أقر ذلك كل من "ابن خلدون" و"ابن الأزرق" (دغيم، 2000، الصفحة 388) و"مالك بن نبي".

وهنا تبرز الإشكالية الأساسية التي تعيق الأمة عن أداء وظيفتها الحضارية والتي تتراوح بين الواقع النظامي والحقيقة الفكرية، حيث تتفاعل جميعها لتكرس عدم قدرتها على فهم وظيفتها الحضارية في تفعيل وتبليغ رسالتها (غانم، الصفحة 51)، كونها فقدت منظارها الحضاري الذي يحكم بوصلة توجهاتها ومساراتها التحضُرِيَّة عبر التاريخ، فاضطربت بين عجزها عن تفهم نسقها الحضاري الحالي، والوعي بالانعكاسات المحدثة من الأنساق الحضارية الأخرى على رأسها النسق الحضاري الغربي المهيمن، ففكريا إما أن ركنت للأفكار الميتة فاندثرت في الماضوية، أو استوردت الأفكار الحداثية المميتة بتطبيق النماذج الفكرية والنظمية لمستعمريها فتنغمس في التبعية، وتلك هي طبيعة علاقة المغلوب المولع دوما بالغالب (خلدون، 1966، الصفحة 620) ما بقيت القابلية للاستعمار في نفسية الأمة (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 2002، الصفحة 138)، وهي بين كلتا الخيارين تتوه عن رسالتها فتفقد فاعليتها الحضارية وتكرس الركود الحضاري، فتتجه نحو ما يضرها أكثر من اتجاهها نحو ما ينفعها.

أضاعت الأمة في سياق ما سبق ذكره بعضا من أصالة فهمها لنفسها ووعيها برسالتها، ولما تتخذه من أفكار ومبادئ وأنظمة تصلح به واقعها، فبظهور موضوع القومية في الأدبيات السياسية العربية والإسلامية برز نقاش حاد بين المفكرين، سعى البعض إلى إعادة تعريف الأمة أو الدفاع عن فئة بداخلها على أساس الطبقة الاجتماعية أو الجنس أو المنطقة أو تيار ثقافي، فانجر عن الانشقاق العلمي في استخدام القومية عدم الإجماع على تحديد مفهوم عام لها يجعل من تعريف القومية وحتى الهوية القومية متغيرا باستمرار، وهو مثار جدل واسع يكتنفه التشعب حول أصل القومية وديموميتها (هوليداي، 2004، الصفحة 31)، ما جعلها ظاهرة مركبة تبدو وحدوية فكريا تستبطن التجزئة واقعيا قابلة للتصرف فيها، فاتصافها بعدم الثبات والدوام من الناحية العلمية له أثره على ضبط المدلول المعرفي لنموذج الدولة القومية، والتي تعد في التاريخ ترجمة مادية لوعي الأمة بذاتها ووجودها الديني أو الثقافي أو اللغوي وتحويله إلى حقيقة سياسية في شكل مشروع قومي قوام التحامه الدين أو الثقافة أو اللسان (بلقزيز، 1999، الصفحة 41)، فعدم الانظباط المفهومي في تحديد عماد المشروع القومي وروابطه بل تنازعها في أحيان كثيرة يؤدي إلى غلبة الفئة القوية على غيرها من الفئات الاجتماعية المستضعفة.

لقد عملت المقاومة الحضارية للأمة تاريخيا على دحر المستعمر التقليدي الغربي وإخراجه من أراضيها، فبرزت الحدود في فضائها الحضاري بعيد ذلك، ورغم عدم الاتفاق على مفهوم جامع علميا للقومية، تم تبني نموذج الدولة القومية المنقولة عن فكر وخبرة الاستعمار تحت ضغوط التعددية السياسية الدولية داخليا، وبالنظر للإمكانيات التي تحوزها الأمة لم تعرف دولها النجاح الذي عرفته الدول الأوربية التي شكلت كيانا إقليميا، بعد مرحلة إقطاعية فيودالية لم يمر بها العالم الإسلامي اعتبرت شرطا أساسيا من شروط تحقيق قيام الدولة القومية الموحدة (الأنصاري، 1994، الصفحة 129)

أفرزت التجربة الأوربية نموذجا تكامليا جمع القوميات الأوربية المتناحرة، في نطاق تفاعل علاقات المصلحة المعبر عنها بالتعاون والتكامل، فنشأ الاتحاد الأوربي وفق "مفهوم جامع" بعدما استنفذت الدولة القومية غرضها، بينما أدت هشاشة مفهوم الدولة القومية والفصام بين إيديولوجيتها وثقافة الأمة إلى نشأة نموذج مأزوم ولد "مفهوما مفككا"، مغذيا للصراعات القومية، فتحولت مصادر قوتها إلى عوامل ضعف فدخلت في مرحلة استضعاف لم تعرفها من قبل، انتهت بها إلى أمم مشتتة تتنازعها الفرق العقدية والسياسية، على خلفية انشطار النخبة وتشتتها بين تيارات فكرية علمانية وإسلامية انقسمت بدورها إلى تيارات فرعية (مصطفى، 2011، الصفحة 53)، والفرعية تجزأت بدورها إلى مجموعات مفتتة اتسمت بالتنابذ فيما بينها رغم أن ما يوحدها أكثر مما يفرقها، فتشكلت كيانات شديدة التنوع والتعدد تكيف الفكر الاستعماري معها بتبني مبدأ "راحلا ليبقى"، منتهجا لسياسة "فرق تسد" إما بتكوين التفرقة أو باصطناعها، أو بإثارتها، مع العمل على تطبيقها في دول تتحرك ضمن علاقات تستند في تحقيق هدفها لسياسات البقاء الجديد في شكل رحيل، وفي ثوب الاستعمار الجديد إلى عوامل الاستعمار والاستثمار في عناصر القابلية للاستعمار بصياغة سياسات وعلاقات محتكمة إلى النزاعات: العرقية والحدودية والمذهبية (عبد الفتاح، 2000، الصفحة 46)، خلقت وغذت علاقات بينية نزاعية على مستوى الدولة الواحدة وعلى المستوى العربي والإسلامي (داخل الأمة)، وعلاقات تبعية وهيمنة على المستوى العالمي (خارج الأمة).

ومع بروز نمط من العلاقات والسياسات اتسمت باستمرارية علاقة الدول المستقلة بالدول المستعمِرة لها، تفجرت العلاقات البينية بين الدول العربية والإسلامية، في اتجاه تصارعي أو اقتتالي بين هذه الكيانات كما حدث في حربي الخليج الأولى والثانية، أما الاتجاه التعاوني فلم يلق حظه من التفعيل والفاعلية، وهي مظاهر الولادة القسرية الشائهة للدولة القومية في العالم الإسلامي (عبد الفتاح، 2000، الصفحة 47)، على حساب تحطيم العلاقات البينية وإهمال العلاقات الخارجية للأمة، وعمق من توتر العلاقات الحرب الباردة حيث انقسمت الدول القومية العربية والإسلامية بين انتهاج الإيديولوجية الرأسمالية أو الإيديولوجية الاشتراكية فتعددت الرؤى ونماذج التنمية، فبالإضافة إلى التجزؤ السائد أفرزت هذه التوجهات تجزيئا من الناحية الفكرية، عمقت من علاقات وسياسات التجزئة، التبعية والتخلف (عبد الفتاح، 2000، الصفحات 48-49)، فصارت بعض الدول العربية والإسلامية بالإضافة إلى عوامل أخرى داخلية وخارجية تسير نحو انهيارها نظرا لعجزها عن أداء مهامها، إما اتجاه الأمة أو اتجاه العالم، فكان من نتائج التخلف والتجزئة تاريخيا أن تحول التنوع العرقي والتعدد المذهبي داخل الأمة إلى نزاعات العرقية، الطائفية والمذهبية عملت على تغذيتها العوامل الخارجية.

2-2- التحديات الخارجية للأمة:

لقد كانت التوازنات والتدخلات الخارجية عاملاً حاضرا مؤثرا بصفة دائمة على مسار العلاقات الخارجية للأمة عبر تاريخها، التي عرفت استجابة قوية وفعالة لتحدياتها في مراحل الوحدة والقوة والفتوح، غير أنه أصبح لها تأثيرات سلبية متزايدة وبصورة متصاعدة تفاقمت شدتها في الثلاث عقود

الأخيرة (مصطفى، التحديات والصراعات التي تواجه العالم الإسلامي في ظل الاستراتيجيات العالمية منذ نهاية الحرب الباردة (1990-2020)، 2007، الصفحة 8)، فقد أضحى الواقع المعاش حاليا يحمل في مستوياته الوطنية، الإقليمية والدولية، أجندات وسياسات نابعة من تنظيمات ذات تنظير سياسي لتفكير استراتيجي معبرا عن نموذج معرفي غربي مهيمن(الواقعية الأمريكية)، بإحكام التبعية والتي تمثل من منظور حضاري علاقة غير متكافئة لغالب متحضر يتحكم في إحداث تغييرات يدخلها على مغلوب متخلف، ومفتاحه في ذلك القابلية المتعددة الأوجه التي تتغذى على ولع المغلوب -المهزوم نفسيا- بالغالب حتى يُبقِي على حالة انحداره وركوده الحضاريين، استغلالا منه لموارده وضمانا لعدم لحاقه بركبه الحضاري، إبقاء وحفاظا على التوازنات الحضارية بين الفضاءات الحضارية الماثلة على السلم الحضاري العالمي.

لا تستند التبعية إلا على الهيمنة والتي تعني خلق مجموعة من الأفكار، المعايير، النماذج، السياسات، البرامج، المشاريع والآليات التي تجسدها مؤسسات ضمن نظام عالمي لإضفاء الشرعية لمجموعة أو مجموعات قوية حضاريا تحكم سيطرتها على مجموعة أو مجموعات مستضعفة حضاريا ضمن نظام استضعافي يشكل فيه المتحضر القوة المهيمنة والمركز المتغلغل إلى محيط المستضعفين بصفة واعية، ضمن شبكة تنظيمات عالمية متغلغلة داخليا، وعلاقات داخلية للمتخلف متصلة ومتشابكة خارجيا بصفة واعية أو لا واعية، تخول المتحضر إحكام هيمنته استنادا على الاستثمار في حالة الاحباط النفسي على مستوى اللاوعي الجمعي وعناصر الاستضعاف للمتخلف، أو محاولة إثارتها أو صناعتها وهميا، غير أن فاعلية التبعية والهيمنة على العالم المتخلف عموما و الأمة خصوصا لا تؤتي أكلها إلا بتوافر عنصري الاختراق والاستلاب.

يمثل الاختراق الحضاري قدرة القوي حضاريا على الولوج لداخل المستضعف حضاريا وبطرق غير مشروعة استغلالا للثغرات النفسية، الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية والثقافية، الموجودة في البنيان الحضاري للمتخلف، من أجل التصرف في عمرانه الحضاري حسب أهدافه واستراتيجياته، ويعد أمرا مستحيلا إذا لم تستشري حالة الاستلاب الحضاري والذي يجسد حالة نكران الذات وجلدها، وقمة الهشاشة النفسية في التعامل مع الأنا نظرا لجهل جوهرها وأصالتها، يرافقها ولع وانبهار بالآخر يتبعها انسلاخ حضاري بالانفصال عن الإنية والثقافة الأصيلة والانصهار في إنية وثقافة غربية غربية حد التمثل بنماذجها الحضارية فيعطي نموذجا ممسوخا عنها وهجينا لها.

وعلى إثر ذلك تعمل التعبية والهيمنة باستخدام الاختراق والاستلاب الحضاريين على تكريس تفتيت الأمة التي عرفت مسبقا وهنا وتشظيا من الداخل، وفي المقابل يدعم المشروع الصهيوني المخترق الذي يتغذى وغيره من المشاريع العابرة للقومية على فرقة الأمة وضياعها، بتخويل من القابلية المتعددة الأوجه القابعة في ذهن ونفسية أفرادها عبر سيرورة تاريخية، مست فيها التجزئة قلب العالم الإسلامي، وتعمقت بقيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين سنة 1948، مصدر التوتر واللااستقرار في المنطقة، والذي تقوم سياسته على المبادئ الثلاثة التي صاغها بن جوريون منذ خمسينات القرن الماضي، المتمثلة في خلق

الاضطراب والتفتيت في جميع الدول المحيطة من خلال دفع الأقليات في داخلها لمحاولة تأكيد ذاتية استقلالها تمهيدا لتحويلها إلى دويلات وكيانات مستقلة ومتميزة، وكذا العمل على إنشاء دولة مارونية في لبنان حليفة للكيان تكون وسيلة لدعم مفهوم الوجود غير العربي في المنطقة، وتمكين قنوات التعامل الصهيوني مع قوى المنطقة فيصير هذا التسلل غير الملموس في مرحلة أولية وسيلة لخلق الاتصال المباشر الاقتصادي وغيره من المجالات في مرحلة لاحقة (ربيع، 2022، الصفحة 14)، وهو ما قد يحيل لاحقا سياسات التطبيع أمرا مقبولا على المستوى المجتمعي في إطار العلاقات الإنسانية الرابطة بين المسلم في علاقته مع الآخر .

لقد برزت قضية العلاقة مع الآخر غير المسلم تزامنا مع انتشار نموذج الدولة القومية، في ظل الاحتكام لقواعد العلاقات الصراعية القتالية أو السلمية، وانبثق عن ذلك الإطار العام الكلي في التطور التاريخي لوضع الأمة في النظام العالمي على نحو أفرز بعد الاستقلال علاقات الهيمنة – التبعية، رافقتها شحوب فكرة الأمة وتدهور الالتزام بمقتضياتها بالنسبة للعلاقات الإسلامية -الإسلامية على نحو أفرز التجزئة والقطرية بعدما كانت الوحدة والتعددية، لتبرز خبرة التاريخ الإسلامي عن نمط تطور العلاقات الإسلامية-الإسلامية بعيدا عن الوحدة، مرفوقا بنمط خبرة التاريخ الإسلامي عن نمط تطور العلاقة مع الآخر نحو التبعية، مرفوقان بنمط التطور التاريخي الداخلي في الدول الإسلامية نحو التغريب، لتتجلى آفة الواقع الراهن للأمة، حيث اقترنت التجزئة داخليا باختراق خارجي ضخم لشبكة العلاقات الإسلامية–الإسلامية، مقترنة بتغريب الأمة فانتهى فيه حالها من الشهود إلى المشهودية (مصطفى ن.، 2011، الصفحة 53)، ابتداء من القرن الثامن عشر وبصفة خاصة في المراحل الثلاث الأخيرة من نهاية الحرب الباردة حتى أحداث 2001/09/11 م، ومن ذلك التاريخ حتى اندلاع الثورات العربية، وأخيرًا من الثورات حتى نهاية العقد الثاني من الألفية 2020، وكان لكل مرحلة نمط تحدياتها وتهديداتها الخارجية للأمة من ناحية، ونمط التدخلات الخارجية في صراعاتها من ناحية أخرى، والتي ينبغي الوعي بها عند محاولة فهم تطورات وتحولات اللحظة الراهنة.

إن التدقيق في خريطة الصراعات التي تنفجر في ساحات العالم الإسلامي ينبئ أنها ذات جذور داخلية بالأساس غير أن الأثر الخارجي لا ينقطع عنها، فهي -وإن كانت تنبع من طبيعة كل إقليم ومشاكله- إلا أن انكشاف سلبيات هذه الطبيعة ومعالجتها بتجاوزها لإيجابياتها لدرجة تؤدي إلى تولد الصراعات ثم انفجارها بصورة مسلحة، هذا النمط إنما هو أيضا نتاج تحديات وتهديدات وتدخلات خارجية تصاعدت تأثيراتها على التوالي عبر القرنين التاسع عشر والعشرين وصولا إلى المرحلة الراهنة (مصطفى ن.، التحديات والصراعات التي تواجه العالم الإسلامي في ظل الاستراتيجيات العالمية منذ نهاية الحرب الباردة (1990-2020)، 2007، الصفحة 6).

وفي خضم ما ذكر عم الافتقار إلى رؤية كونية شاملة ومستقبلية، فارتبطت السياسيات القومية بالمصالح الخارجية جراء هيمنة قوى عدة واختراقها للداخل، ووهن المؤسسات وعدم فاعليتها، مما أفرز صراعات داخل الوحدة القومية الواحدة بين الأعراق والمذاهب انتظمت في أزمة إنية، وصراعات بينية

أثارتها نزاعات الحدود، التي أضعفت مع عوامل أخرى التوجهات التكاملية والوحدوية والتعاونية في الرؤية والسياسات والعلاقات، وكذا المؤسسات، فامتازت بضعف الصياغات النظمية والمؤسسية التي تجابه تحديات الأمة، مما ضاعف الاتجاه نحو الانفصال والتفكيك، وبروز مشاكل الأقليات في العالم الإسلامي، رافقه حرص على تدويل المشاكل والقضايا التي تخص عالم المسلمين، تزامن مع حالة تغريب من الداخل وانسياق نحو الخارج، مما فتح الباب أمام اختراق الدول الغربية للشؤون الداخلية، فلم تتفق الدول العربية والإسلامية حتى في موقفها من العدو الصهيوني وفي قضية القدس، بل صار التطبيع مع "اتفاقيات إبراهيم" مشروعا تحالفيا مع الكيان الصهيوني كذريعة لمقاومة المشروع الإيراني وامتداده في المنطقة العربية، وهو ما أدى إلى إقصاء أجزاء مهمة من الأمة أخذا بأولويات وثوابت الدولة القومية التجزيئية، بل أسهم ذلك في بروز مشاكل الأقليات الإسلامية والكيانات المسلمة داخل الحضارة الغربية كالبوسنة والهرسك، كوسوفا، والشيشان (عبد الفتاح، الأمة الإسلامية وعواقب الدولة القومية، 2000، الصفحة 49)، وهو ما وضع الأمة في تحديات مكانية تنازعت بين الأمة والأقليات المسلمة وامتدادها والدولة القومية وسيادتها وحدودها.

لقد كان لدعوى صراع الحضارات رواجا كبيرا على المستوى الدولي لتتحول من أنشط الأفكار تداولا ونقاشا، كونها بشرت بحرب باردة بين الحضارات تعد أكثر وأشد خطورة (Hans-Peter Martin, 1997, p40)، عمق تبني هذا الطرح من طرف الإدارة الأمريكية في سياستها الخارجية العلاقات الصراعية بين الأمة وغيرها من الشعوب على رأسها الغرب، وتعمقت الهوة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م، وبداية غزو العراق وأفغانستان عام 2003م، بدعوى الحرب على الإرهاب الذي كان شعارا وستارا لاستباحة الأرض، وتنكيل أفراد الأمة، واستغلال ثرواتها، تجسيدا لأطروحتي "نهاية التاريخ" و"صراع الحضارات"، وبتأجيج من إستراتيجية نشر الإسلاموفوبيا في محاولة لشيطنة المسلمين بوصفهم بالإرهاب، العنف، التطرف والتعصب، بالإضافة إلى الإشكاليات التي تعددت وتنوعت في الداخل، لتعرف المنطقة العربية بعدها انتفاض شعوبها نهاية سنة 2010م، ليكون بداية ما اصطلح عليه "بالربيع العربي" لتعبر بكل ما أوتيت من قوة وفي مظاهرات ومسيرات عن رفضها للواقع المعاش، غير أن الربيع المنشود حمل في طياته دمارا لبعض الدول، لتعيد بعدها القوى الدولية من جديد تجديد حربها على الإرهاب في محاولة لإعادة هندسة التوازنات الإقليمية وفق مصالحها.

إن للإشكاليات الداخلية الماثلة في: التجزئة، التخلف والتغريب والتي فاقمت منها الإشكاليات الخارجية والمتجسدة في التبعية والهيمنة، البارزة في حالة الاختراق الإسلامي-الإسلامي، الإسلامي- العربي، العربي-العربي، الغربي-الإسلامي، والصهيوني- الإسلامي، لها تجلياتها في جميع المجالات، في بيئة سادها الفراغ الثقافي والاستلاب وتنازع الفرق الدينية وشتاتها، وتفشي حالة لاوعي سامه فقدان الثقة بالذات والقدرة على التحدي، في ظل النقص القيادي وقدرة القيادات الأجنبية على توظيف الفواعل الداخلية لصالح أهدافها الذاتية، فعجزت الأمة عن تحقيق وحدتها، في ظل غياب تنظيم دولي ثابت له صفة الديمقراطية والمؤسسية، ليعبر عن إرادة الأمة، وغياب المؤسسات، وتغلغل المفاهيم الغربية في التعامل

السياسي الذي كرس انقطاع علاقة استمرارية الفكر بين التراث الإسلامي والواقع المعاصر، لازمه عدم بناء فكر سياسي متكامل قادر على التعامل مع العالم المعاصر، حال دون خروج الأمة إلى الوظيفة الإحيائية البنائية. (غانم، الصفحة 52)

في الوقت ذاته شكل الغرب المتربع على قمة السلم الحضاري العالمي نظامه الدولي بمؤسسات دولية مثلت إرادة القوة الإمبريالية العالمية الماثلة في الولايات المتحدة الأمريكية ومعاونيها من القوى الإمبريالية الفرعية، بريطانيا وفرنسا في الشؤون السياسية العالمية، وألمانيا واليابان في الشؤون الاقتصادية العالمية، كما استخدم الغرب الأمم المتحدة كأداة من أدوات التعامل لتكريس هيمنته المتعددة القوميات على عالم إسلامي متنوع ومتعدد وهي حالة خاصة في علاقات الشمال بالجنوب (المزروعي، 1998، الصفحة 56)، دعمتها باقي المؤسسات الدولية المتخصصة والتي تشكل أدوات شبكة النظام الدولي الحالي، مثل البنك العالمي وصندوق النقد الدولي وهي المؤسسات الرئيسية تحتكرها الأقلية الغربية لصناعة السياسة الاقتصادية العالمية، حيث تم تصميم هذه المؤسسات في ظل الاستعمار ولا تزال في جوانب رئيسية ذات طابع استعماري، فعدم المساواة بين الدول المستعمِرة الغنية والدول المستعمَرة الفقيرة -رغم إمكانياتها- بارز جليا في التمثيل وقوة التصويت (Hickel, 2020)

لقد سهل استلاب الأمة حضاريا من طرف الغرب صاحب مؤسسات النظام الدولي المشكل من ترسانة الشبكة المعلوماتية، الإعلامية والاتصالية في حربه الناعمة كي يعمق الاختراق، بتعميم نموذجه الحضاري بكل مكوناته، وفي كل المجالات ولو باصطناع الكراهية اتجاه من يملك ذخائر تحقيق مشروع حضاري عالمي، ما يجعل بناء المستقبل السياسي القريب للأمة مرهون بقائمة من القوى والعلاقات والتفاعلات الداخلية، الإقليمية والدولية، وتعبر عنه جملة من القضايا والتصورات والمشاعر التي تتراوح بين الأنظمة والشعوب الطامحة إلى الانعتاق من القلق المعيشي أولا ثم الحرية والعدالة ثانيا (الليثي، 2020، الصفحة 164)، غير أن الاستلاب مهما طال فالذات المستلبة لا تقوى على إزالة الذات الحقيقية في جوهرها حتى وان توشحت بها لفترة طويلة فمصيرها يوما ما الإحياء من جديد، وسر انبعاثها كامن في الوعي بإمكانيات الأمة وقدرتها على تفعيلها كي تستعيد شهودها على غيرها من الأمم.

3- إمكانيات فاعلية الأمة الحضارية وآليات تحقيق الانبعاث الحضاري

أبدعت الحضارة الإسلامية نموذجا رائدا ومنفردا عن نظام عالمي قائم على كيان حضاري وقيمي تمثله الأمة، بعد أن نشأت في ساحة عالمية متعددة الأقطاب المتناحرة، فانتهجت طريقة متفردة للحكم في جزء كبير من المعمورة ولأكثر من عشرة قرون، آخرها الخلافة العثمانية التي استمرت من بداية القرن الرابع عشر إلى عام 1922م، قدمت مستويات من الهدوء والإنجاز الثقافي الحضاري الذي لا يصدق بالنظر إلى واقع العالم الإسلامي الممزق حاليا، غير أن الأمة منبتها روحي بالأساس فهي الحاملة للرسالة الخاتمة ما يؤكد إمكانية عودة فاعليتها من جديد ما دامت رسالتها مستمرة وخالدة.

ويشتمل هذا العنصر تحديد أسسي إعادة الدور الحضاري للأمة الذي يبتغي الآخر إلغائه والقضاء عليها، في مقابل قدرة الأمة تاريخيا على المقاومة الحضارية والاستجابة للتحديات، ويبرز ذلك جليا في إمكانيات فاعليتها الحضارية وآليات تفعيل تلك الإمكانيات لإعادة انبعاث الأمة حضاريا.

3-1- إمكانيات الفاعلية الحضارية لدى الأمة:

شكلت الأمة الواحدة بالأمس حضارة جامعة بثقافات متعددة، وتمثل اليوم فضاء حضاريا كونيا في امتدادها الجغرافي التاريخي حيث يصعب دراستها دراسة تفصيلية كاملة تعبر عن الصورة الجغرافية الراهنة بصورة دقيقة وكاملة، فليس سهلا عد المسلمين بدقة، فمناطق العالم الإسلامي تعد من أقاليم النمو السكاني السريع، وفي ذات الوقت عرفت حروبا حصدت الملايين من الضحايا، كما أن عدد الداخلين في الإسلام يرتفع يوميا، فهو في تزايد مستمر وفي توسع ديناميكي مطرد بعيد المدى كونه أكثر الأديان نموا عدديا(حمدان، 1971، الصفحة 12)، ويعد الانتشار السريع للإسلام في المجتمعات الغربية ظاهرة حديثة، خلق إشكالا لدى الغرب تمحور في كيفية التخلي عن الحداثة، والتوجه نحو الإسلام الذي يفتقر لهذه الحداثة، وليس له منجزات مادية تقارن بما عند الغرب، غير أن الثراء العقائدي في الإسلام هو الذي دفع لاعتناقه، بالإضافة إلى ما يعانيه الغرب من إفلاس لحضارته في الجانب الروحي أثر على الإنسانية جمعاء، وغيرها من الأسباب التي دفعت بالعديد من المفكرين إلى التوجه نحو الإسلام كحل حضاري ذو مستوى كوني يمكن أن يجسَّد من خلال مشروع حضاري قابل للتطبيق بالنظر للإمكانيات التي تحوزها الأمة. (الميلاد، 1995، الصفحة 32)

تملك الأمة مقومات حضورها الكامنة في الكثافة السكانية، حيث يوجد أكثر من ملياري مسلم في جميع أنحاء المعمورة، مما يجعل الإسلام ثاني أكبر ديانة في العالم، بعد المسيحية، ويُتوقع أن يفوق عدد المسلمين عدد المسيحيين فيحتلون المرتبة الأولى في التعداد السكاني من حيث الديانة (Muslim Population by Country 2022, 2021)، ويُقدر أن يزداد عدد السكان المسلمين عام 2060 بنسبة 70٪(Project, 2017)، ويتمركز المسلمون في 50 دولة على امتداد إقليمي من طنجة إلى جاكرتا، ومن غانا إلى فرغانة، بعلاقة جاذبة لدول العالم الأفروآسياوي، فرقعتها الجغرافية تجمع بين أهم الأجزاء من إفريقيا وآسيا، كما تتوغل فيهما جنوبا وشمالا حتى شرق أوربا،بمساحة تبلغ حولي ربع مساحة الأرض، فهو يحتل مكانا جيواستراتيجيا -جعله محط أطماع القوى العظمى على مر التاريخ- يخوله امتلاك مقومات القوة الاقتصادية نظرا لكثرة الموارد الطبيعية، وتعدد الأنهار واتساع مساحة الأراضي الصالحة للزراعة حتى أنها تصل إلى حوالي مساحة أستراليا، كما يطل على 18 بحرا وثلاث محيطات وأربع بحيرات مشتركة مع دول أخرى، بالإضافة إلى أهم الممرات والمضايق البحرية وأكثر من250 نهر، وحوالي 10000 نهير كما يوجد به أهم أنهار العالم.

بالإضافة إلى مصادر الثروة الاقتصادية، تتربع الأمة على مخزون ثقافي ثري ومتنوع، يوكل لها البحث عن مصادر قوتها الثقافية واستخراجها، ومن ثم عبر استخدامها بتحويلها إلى قوة وطاقة للإنتاج والتصنيع وللحركة المعنوية والأخلاقية والاجتماعية، حتى تتحول إلى أمة معاصرة خلاقة وبناءة وراقية

ومحافظة على أصالتها، ذات رسالة جديرة في حركة البشرية العامة نحو أهدافها(شريعتي، 2008، الصفحات 86-87)، باستلهام التجارب التاريخية التي كانت فيها الأمة فاعلا دوليا، ولها من الأحداث ما لا يعد ولا يحصى، ففي العصر الحديث تعد الثورة التحريرية الكبرى مثالا على المقارمة الحضارية الممتدة على مر 132سنة، حيث استطاع الشعب الجزائري تغيير العالم خلال أربع سنوات (1954-1958)، عبر الضغوط التي مارسها على النظام الدستوري الفرنسي، والتي فاقت الضغوط التي مارستها حرب الفيتنام على أمريكا فيما سبق، لدرجة أن أصبحت فرنسا على شفا حرب أهلية، حيث كان اليسار الفرنسي مستعدا للنزول بالسلاح في الشوارع لمحاربة القوات الفرنسية المحبطة، والتي تشعر بعدم أخلاقية المهمة التي ذهبت من أجلها إلى الجزائر، إذا ما فكرت هذه القوات في الذهاب إلى باريس لإسقاط الحكومة، وعلى إثر ذلك أسس الرئيس الفرنسي ديغول الجمهورية الخامسة، وانسحبت فرنسا من الناتو، فأصبحت أقل خضوعا للولايات المتحدة، وتخلت عن سياستها الاستعمارية عبر العالم خصوصا في إفريقيا، فغيرت الثورة الجزائرية عبر محاولة تغيير واقع الجزائريين تاريخ فرنسا وبذلك تغير تاريخ أوربا والعالم فكانوا شركاء في صنع التاريخ (المزروعي، 1998، الصفحة 42-43) وتلك هي أحد المصادر القيمية التاريخية المبرزة لفاعلية الأمة حضاريا.

وبفعل التدافع المستمر بين الشعوب وحضاراتها، فعلى الأمة إما أن تتحلل وتضمحل في سياق الشعوب الأخرى أو تستعيد نهضتها وترتقي فتقدم نموذجها الحضاري المستنبط من أصالتها وخصوصيتها، وذلك بالاحتكام إلى سنن الخلق التي تتمثل أهمها في: سنة التغيير، وسنة التدافع، وسنة التداول، فالتغيير لا يمكن أن يكون واقعيا إذا لم يكن فكريا وسلوكيا، وهو الحس الموجود لدى الأمة بضرورة تغيير واقعها المعاش نظرا لإمكانياتها التي تحوزها، فهي تمتاز ببعدها العالمي في الانتشار في كل مكان، واكتسابها لمشاعر التعاطف، فضلا عن الفراغ الإيديولوجي السائد في العالم المعاصر ، فهي صاحبة الحضارات القديمة وأرض موطن الأديان، ومكمن الثروات، لا تزال تحتفظ بوحدتها الروحية، وبمقاومتها الحضارية ضد كل الاختراقات، بل وتمتلك رأسمال روحي ينزوي على رسالة سماوية خالدة خاتمة ذات رؤية كونية تعد جوهر فاعليتها، والتي تشكل بالإضافة إلى مكنوز الميراث الثقافي الأصيل، العتيق والعريق عاملا جامعا وأساسيا ومبدأ موحدا يجب أن يطبق في أي محاولة للتخطيط، فرغم وحدتها الروحية إلا أنها متعددة الجوانب تحوي عدة عوالم في قلبها الأمة العربية التي هي مركز الأمة الإسلامية، وتربط بين العالمان الإفريقي والآسيوي، ضمن دائرة عالمية تحوي أقليات مسلمة.

وتعد الأمة العربية القلب النابض للأمة الإسلامية كونها تختص بخصوبة التجربة التاريخية وتميزها بالتنوع والإبداع، وخصوبة التجربة العقدية والثقافية وغناها وتميزها، التي أثرت الإمكانيات الحضارية، البشرية، المادية والإستراتيجية، وهو ما عمق الدوافع النفسية الاجتماعية والسياسية، للنهوض الحضاري لدى الأمة عامة، خاصة بعد الاختلالات العميقة التي أحدثها الاستدمار في موازين القوى العالمية (برغوث، الصفحة 8)، وللتغيرات التي مست النظام الدولي بعد الحرب الباردة وأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأحداث ما اصطلح عليه بالربيع العربي، حيث تولد وعي بمصير الأمة وضرورة تفعيل علاقاتها الخارجية

نظرا لوحدتها من ناحية وتعددها من ناحية أخرى، فيبدو العالم الإسلامي ينسجم في جانبه الروحي ويتشعب في جانبه الدنيوي، غير أن الوعي لا يغير من الواقع شيئا إن لم يصدق بسعي ثابت وفق آليات تحقق التمكين الحضاري.

2-3- آليات الانبعاث الحضاري للأمة:

يعتبر التنظير للأمة والتخطيط لنهضتها وإعادة تصميمها بوضعها في إطارها الزماني والمكاني، أول فعل حضاري يقحمها في حيز الانبعاث الحضاري نحو الفاعلية الحضارية، وفق موازنة أصالة معاصرة من منظور حضاري، ووفق مشروع حضاري يعكس هذه الموازنة، ويمثل مالك بن نبي أبرز الجهود التنظيرية في المنظور الحضاري، حيث شخص مرض الأمة أنه حضاريا يستدعي حلا من جنسه، ورأى في فكرة إقامة كمنويلث إسلامي واقعا وجب تجسيده، انطلاقا من الشعوب العربية والإسلامية (بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، 2006، الصفحة 77)، فحتى تضمن الأمة بقاءها لا بد أن يتفعَّل حضورها على كافة المستويات، بدءا من المستوى المحلي نهاية بالمستوى الكوني، وفي جميع المجالات، وهذا أمر لا يتم إن لم يتحقق انبعاثها الحضاري، وهو ما يستوجب تحدي النهوض لأمة برمجت على القابلية للاستعمار التي لا بد أن تتخلص منها.(بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، 2002، الصفحة36)

ويستوجب النهوض رفع الأمة بمستواها إلى مستوى التحديات الحضارية الكونية، انطلاقا من دور المسلم في إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين، وفق شروط الاقتناع والإقناع بتقديم نموذجه الحضاري للإنسانية، وعليه فالبناء الحضاري لا بد أن تشتد لحمته بالأمة التي تتشكل من شبكة العلاقات الاجتماعية التي هي روحها، تربط أفراده فيما بينهم، وتوجه نشاطاتهم المختلفة في اتجاه وظيفته العامة المنوطة برسالة المجتمع ذاتها، بإعادة الأواصر الأخوية بين بني الأمة وفقا لرابطة الوحدة المقدسة، تجاوزا للانقسامات الطائفية، المذهبية، العرقية، والقبلية التي فرضتها حالة التجزئة والتبعية والتغريب، وهو ما يهيئ الأرضية لتطبيق ما يتم تصوره من حلول للمشكلات الاجتماعية، التي يعاني منها كل من العالمين المتخلف والمتقدم، من منطلق مبدأ الاتكال على الذات، وبالاستثمار الاجتماعي في الطاقات الحيوية والإمكانيات المادية، مع وجوب توخي مبدأ الاستفادة من التجارب الفاشلة علميا ونفسيا، بإيجاد قواسم مشتركة وبإزالة العقد والمسلمات الوهمية (بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، 2018، الصفحة 76).

تعد العملية ضرورة وجودية وواجب إنساني أمام التغير الواقع على المستوى العالمي بعد تمركز القوة على محور واشنطن-طوكيو ممتدا إلى بكين، وما ترتب عليه من نتائج ذات صبغة جغرافية سياسية، فكان لزاما الأخذ بعين الاعتبار العناصر النفسية والعوامل الاجتماعية الخاصة بالأمة الإسلامية عند التخطيط لها في المجال الأخلاقي، للتخفيف عن الوعي الإسلامي ثقل وحدة الأحاسيس السلبية التي تعبر عن ذاتها من خلال حالة الإحباط واليأس التي تعيشها الأمة. (بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، 2006، الصفحات 40-42)

وبالرغم ما تحويه الأمة من إمكانيات حضارية، فالإرادة الحضارية هي الآلية التي تحول الإمكان الحضاري إلى إنجاز حضاري ذو فاعلية حضارية وفق شروط عملية تتضمن الإشراف والتنظيم والرقابة،

وبالتالي خلق حضارة وفقا للإرث الإنساني المشترك، والإرادة الحضارية لدى الأمة منبعها فاعلية الفكرة الدينية، ففي ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كأنه مطبوع في النظام الكوني، ليعبر عن قانون خاص بالفكر ، خلق للأمة منذ تشكل المجتمع الإسلامي الأول وحدة روحية من الناحية العقائدية، والتي تلعب دورا مهما في تماسك الكمنويلث والتوفيق بين عناصره، فمن ناحية الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي يمتاز مظهره الفني- التنفيذي بشدة تعقيده وتعدده وتنوعه، حيث يحوي عدة عوالم، والتصميم لهذه العوالم على المستوى البيني يستوجب بالضرورة الأخذ بعين الاعتبار عددا معينا من المعطيات العضوية المتمثلة في التكامل في الوحدة الروحية، تستمد فعاليتها من الإرادة الإسلامية الجماعية، انطلاقا من مبدأ متكامل يعبر عن وحدة المشكلة وتعددها وتعقيدها، إذ لا جدال أن الأمة الإسلامية بالرغم من التقلبات التاريخية تحتفظ بوحدة روحية، هي عامل أساسي من الوجهة النفسية في تماسك الكمنويلث، ومن الوجهة الفنية في التوفيق بين عناصره، فالوحدة لا يمكنها القيام بدورها التكاملي إذا لم تنبع عن إرادة الأمة الجماعية، وكذلك الضرورات المنطقية التي تضمن للمشروع تحقيق إتحاد إسلامي ينظم الأمة في علاقة وظيفية بمعطيات تطوره الخاص، وبضرورات تكيفه مع تطور العالم المخطط المتحضر. (بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، 2006، الصفحة 53)

يترأس الإتحاد الفدرالي بين العوالم الإسلامية مؤتمر إسلامي يقوم بدور الهيئة المنفذة لهذا الإتحاد، تتلاقى فيه التقسيمات الفدرالية مع الاتجاهات الطبيعية للتطور التاريخي والسياسي والاقتصادي، بناء على دراسة لكل عالم من العوالم الإسلامية، بإجراء تحقيق على مستوى الداخل في العناصر العضوية المتمثلة في الهوية والأصالة الخاصة للمجتمع، وعلى محيطها بدراسة العناصر النفسية والقرابات التي يمكنها أن تضم العالم موضوع التحقيق للعوالم الأخرى، انطلاقا من الداخل إلى المحيط، ينتهي إلى نقطة التقاء والنزوع إلى الاتصال، حيث لا يفرض من الخارج، وهذا يتم من خلال تعيين لجان بحث متخصصة تقوم بدراسة كل منطقة تحت رئاسة لجنة مركزية تعمل على جمع التحقيقات على المستوى العالمي من أجل وضع دراسة شاملة عن الأمة، لدراسة إمكانيات التغيير والوصول إلى عوالم إسلامية فدرالية تحكمها وحدة روحية وتنوع في العوالم. (بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، 2006، الصفحة 72)

تلعب اللجنة المركزية دور الوحدة القاعدية التي تتصل على أساسها أجزاء الإتحاد الفدرالي الإسلامي المختلفة، برئاسة المؤتمر الإسلامي الذي يعد إطار العمل الإسلامي المشترك، حتى تتبادل فيما بينها ما يتعلق بشؤونها الإسلامية، حيث تحوي اللجنة المركزية القاعدية على مركزين شمل فيهما جانب الفكر من خلال مركز الدراسة الذي يهتم بدراسة المشاكل النوعية للأمة، وجانب الواقع من خلال مركز الإنجاز لإذاعة وتطبيق الحلول المتوصل إليها في مركز الدراسة لتجاوز تلك المشاكل. (بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، 2006، الصفحة 57)

ورغم الجهود الفكرية ظل مفهوم الأمة الإسلامية محل اهتمام عقدي ومعرفي، فكري وسياسي من خلال دراسات شرعية اجتماعية وسياسية ساهمت في طرح المفهوم وتأصيله ودراسة واقعه مثل "د.السيد عمر" و"د.رضوان السيد"، أما فضل التنبيه لأهميته وكيفية تطويره وتوظيفه في العلوم السياسية يعود

لجهود "د.حامد ربيع" و"د.منى أبو الفضل". (مصطفى، العلاقات الدولية في الفكر السياسي الإسلامي: الإشكاليات المنهاجية وخريطة النماذج الفكرية ومنظومة المفاهيم، 2013، الصفحتان 201-202)

مثلت الأمة عند "حامد ربيع" مفهوما معنويا وحضاريا، فهي انتماء ديني يسوده كتاب وتعاليم وتبعية ولغة واحدة، هي أوسع من الدول فحيث يوجد المسلم يعيش على أرض إسلامية وينتمي لتلك الوحدة المعنوية، فرابطة الأمة تنبع من العلاقة الروحية التي يلفها عامل الدين والانتماء إلى لغة القرآن، فما يضفي الوحدة هو الإدراك بالإيمان من جانب الدعوة وتعاليمها، واحترام لقواعد الشريعة، واستخدام لغة القرآن كأسلوب وحيد للتعامل الفكري والاتصال العقائدي، فوظيفتها الحضارية هي القيادة الفكرية للتطور الذي تعيشه حاليا الإنسانية السياسية كونها تعيش فراغا فكريا تبحث عن نموذج جديد للوجود السياسي، وهنا تبرز قوة الإسلام، فتحقيق الأمة لوظيفتها الحضارية يستدعي مبدآن الأول تحتاج إلى القيادة الروحية من منطلق إحياء التراث الإسلامي لتستطيع أداء وظيفتها التاريخية، والثاني إلى الثقافة الإسلامية ودور الجامعات ومراكز البحث في الانعتاق من الغزو الأجنبي لها. (غانم، الصفحة 52)

جاءت سلسلة مقالات "أمتي والعالم" انشغالا لد. حامد ربيع بالأمة وتحدياتها، إمكاناتها وطاقاتها، ذاكرتها التاريخية والحضارية الدافعة الناهضة، في واقعها الراهن وفي مستقبلها، في العالم وفي ارتباطها به وتفاعلها فيه، فجعل من أوجب الواجبات وهي تبحث عن جوهر وظيفتها الحضارية والمعنوية، أن تكون في العالم غير مقطوعة منه أو ممنوعة عنه، وهو ما يحدد معنى الأمة في الحضور والشهود لا معنى المغيب وعدم الفاعلية، فلم تكن بالنسبة إليه مجرد مجال أو وحدة للتحليل بل تخصص كرس له كل قدراته وإمكانياته وفاعليته (الفتاح، أمتي في العالم-أمتي والعالم الأستاذ الدكتور/ حامد ربيع عالم حمل هم الأمة في عقله، أمتي في العالم، الصفحتان 34-35) ، وأرساه في الجامعة المصرية، فأسس منظومة منفردة في تخصص العلوم السياسية وعلى خطاه سارت "د.منى أبو الفضل" والتي جاءت بمصطلح "الأمة القطب" انطلاقا من خصوصيات الأمة التي ارتبطت بالعقيدة والدعوة، فالعقيدة هي منطق بقاء الأمة، فمهمة الباحث تحويل الأمة موضوعا من ظاهرة إلى مفهوم، والارتقاء بها من مستوى الوجدانية إلى مستوى تفاعلات واعية إرادية، واكتساب السلوك الواعي الإرادي للأبعاد المعنوية والقيمية التي تضفي عليه المعنى الإيجابي والمضمون الأخلاقي اللذان يعدان دعائم التطور الحضاري للإنسان (الفضل، 2013، الصفحة 330)، وذلك بتحويل الأمة من ظاهرة حسية-وجدانية إلى مفهوم عقلي منطقي، وهي عملية واجبة يفرضها منطق العصر، ومتاحة بحكم الشروط والإمكانيات المتوفرة لدى الأمة، فالأمة على المستوى الفكري والعملي هي المدخل العملي لحل مشكلتي الانتماء والهوية إدراكا للذات بالذات. (الفضل، 2013، الصفحة 331)

إن أي محاولة للانبعاث الحضاري تتم في سياق وعي الأمة بفكرها، ضمن سعيها لتغيير واقعها، وهو أمر لا يؤتي أكله إلا من خلال دراسة واقع الأمة وسيرورتها منذ التكوين إلى غاية الساعة، ورصد مواطن الضعف، ومكامن القوة لإيجاد الحلول الفعلية، وهو تكليف مناط برسالة الأمة ومسؤوليتها في الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح في الأرض، تشكل فيه مأسسة القيم الرسالية، وتحمل المسؤولية اتجاه الإنسانية وفق الرؤية الكونية الشاملة، تجسيدا مجتمعيا على مستوى الفرد والجماعة، وفق الوحدة المقدسة وأسس التعارف والتشارك والتواصل بينيا فيما بين دوائر الإنتماء المحلي للأمة، وإنسانيا بالتعارف الحضاري الذي هو أصل تنوع الشعوب والأعراق على المستوى العالمي، عبر منهجية التفاعل الحضاري في التعامل مع الآخر في ظل التحولات النظام الدولي وفق التعارف، التشارك، التداول والتدافع،ولضمان فاعليتها لا بد من الرمزية والمؤسساتية بمأسسة الأمة وقيمها بخلق تنظيمات التشابك وتفعيل الإنتاج الحضاري بينيا وعالميا، غير أن عالم اليوم الذي صارت فيه المساحات متناهية في الصغر عبر شبكة الاتصالات والمعلومات الدولية يستدعي التحصين عبر خلق المناعة الحضارية من الداخل وهو موكول لفاعلية الفكرة الدينية والمحافظة على سمات الشخصية الأصيلة للفرد المسلم.

خاتمة:

لقد شكلت الأمة الإسلامية على مدار عشرة قرون حضارة إنسانية رائدة، تجسدت خلالها على المستوى التاريخي باعتبارها نظاما دوليا مثلت أم الكيانات الجماعية التي عرفتها المنطقة الحضارية، حققت فيها مستويات عليا من التنوع والتعايش والتفاعل والامتداد والتوسع، وهي بذلك ترجمت بشكل أو بآخر سلوكيا وواقعيا جوانب المعنى الأصيل لأمة اختصها الله في ذكره الحكيم أنها خير أمة أخرجت للناس، غير أن واقعها اليوم لا يعكس ذلك المضمون بل يعرف في بعض الأحيان تشويها وتشويشا لمفهوم الأمة وما تعلق به من مفاهيم أساسية وأصيلة، على رأسها الجماعة والشهادة والدعوة، فكان له الأثر البالغ على ضبابية مفاهيم التعارف والتدافع والتداول في علاقاتها التفاعلية، بل عرفت تلك العمليات والتفاعلات تشنجات عدة إن لم تكن أحيانا تعبر عن حالة شللها.

ولد الانسياق نحو تقليد النموذج الغربي غداة استقلال البلدان الإسلامية عن المستعمِر والتمسك بالتقسيمات الجغرافية الموروثة عنه، حالة شائهة لهذا النموذج على الأرض العربية الإسلامية، باعثا على تعظيم الأعراق والطوائف، ومفعلا لمعاني الحدود والسيادة، فأحيى نعرات عرقية، طائفية، مذهبية وحدودية، كانت الأمة قد تجاوزتها في زمن صعودها الحضاري، فنجم عن ذلك عواقب جسيمة حاقت بأنساق الأمة فكرا وواقعا، وأخلت بوضعها داخليا وبينيا ودوليا، فافتقدت منعتها الحضارية، فللمتمعن في السيرورة التاريخية للأمة يرى جليا حجم التفكيك وصراعات الحدود والأعراق والطوائف والمذاهب من جهة، وبين امتداد الأمة عالميا أفرادا وأقليات على المستوى العالمي، وتفاعلها في العلاقات الدولية، والتي تشكل هيكلا اجتماعيا وكيانا جماعيا فرعيا في النظام العالمي، حاضرا في الأجندات الدولية للقوى العظمى، وهو ما أفرز أنماط تحديات وسياسات خلقت إشكاليات جمة للأمة، وعلى رأسها سياسات التي تمس بالقيم المجتمعية والثقافية والحضارية للأمة، مما يسهم ويسهل ذوبانها في المنظومة القيمية الغربية ذات النظرة الإستعلائية، غير أن استجابة الأمة لهذه التحديات سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدول يزيح اللثام عن المقاومة الحضارية لها في سبيل إثبات وجودها واستمرار تمسكها بقيمها العقدية القيمية الثقافية الحضارية، وفي سبيل محاولة تقديم بديل حضاري للإنسانية.

قائمة المراجع:

- (بلا تاريخ). تم الاسترداد من معجم المعاني الجامع: https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%82%D9%88%D9%85
- Alcaude, D. (2010). *Dictionnaire de sciences politiques.* Paris: SIREY.
- Hickel, J. (2020, 11 26). *Aljazeera Opinions World Bank* . Consulté le 8 12, 2022, sur Aljazeera: https://www.aljazeera.com/opinions/2020/11/26/it-is-time-to-decolonise-the-world-bank-and-the-imf
- *Muslim Population by Country 2022*. (2021). Récupéré sur world population review: https://worldpopulationreview.com/country-rankings/muslim-population-by-country
- Nay, O. (2008). *LEXIQUE De science politique Viie et institutions politiques.* Paris: DALLOZ.
- Project, P. R. (2017, 04 05). *Size and Demographic Caracteristios of Religious groups report*. Consulté le 06 09, 2022, sur Pew Research Center's Religion & Public Life Project: https://www.pewresearch.org/religion/2017/04/05/the-changing-global-religious-landscape/
- أماني غانم. الخريطة الإدراكية للنخب المسلمة لقضايا الأمة. تأليف *النخب المسلمة وقضايا الأمة*. القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث.
- حامد ربيع. (2022). *سوف أظل عربيا مقالات في الفكر والواقع*. القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث.
- سميح دغيم. (2000). *موسوعة مصطلحات العلوم الاجتماعية و السياسية في الفكر العربي و الإسلامي*. بيروت: مكتبة لبنان .
- سيف الدين عبد الفتاح. (2000). الأمة الإسلامية وعواقب الدولة القومية. *حولية أمتي في العالم، العدد الثاني* .
- سيف الدين عبد الفتاح. *أمتي في العالم-أمتي والعالم الأستاذ الدكتور/ حامد ربيع عالم حمل هم الأمة في عقله، أمتي في العالم*. القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية.
- عبد الإله بلقزيز. (1999). القومية كضرورة تاريخية. *ندوة القومي والقطري في الفكر والممارسة في الوطن العربي* . دمشق، سوريا: منشورات المركز العربي للدراسات الإستراتيجية.
- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. (1966). *مقدمة ابن خلدون*. لجنة البيان العربي.
- علي المزروعي. (1998). *قضايا فكرية: إفريقيا والإسلام والغرب على أعتاب عصر جديد*. القاهرة: مركز دراسات المستقبل العربي.
- علي شريعتي. (2008). *الإنسان والإسلام*. بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم.
- مالك بن نبي. (2000). *القضايا الكبرى*. دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (1986). *شروط النهضة*. (عمر كامل المسقاوي، عبد الصبور شاهين، المترجمون) دمشق: دار الفكر.
- مالك بن نبي. (2002). *وجهة العالم الإسلامي*. دمشق: دار الفكر.

- محمد جابر الأنصاري. (1994). *تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية: مدخل إلى إعادة فهم الواقع العربي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- مدحت ماهر الليثي. (2020). كورونا ومآل الجيل الثاني من الانتفاضات العربية. *قضايا ونظرات تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغير الحضاري* ، صفحة 164.
- منى أبو الفضل. (2013). *المدخل المنهاجي لدراسة النظم السياسية العربية*. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- نادية محمود مصطفى. (2013). *العلاقات الدولية في الفكر السياسي الإسلامي: الإشكاليات المنهاجية وخريطة النماذج الفكرية ومنظومة المفاهيم*. القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية.
- نادية محمود مصطفى. (2011). *نحو مشروع للنهوض الحضاري: من الفكر إلى الحركة، (في): مشروع النهوض الحضاري ونماذجه التطبيقية*. القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية.